تحقيق أدبي

الأدب والمنفى

نشرت مجلة «ماغازين ليتيرير» الفرنسية في عددها رقم (٢٢١) تحقيقاً بعنوان «الأدب والمنفى» نترجم في ما يلي ملخصاً له:

يدخل المنفى صميم الإبداع الأدبي. وكأن الكاتب، بطبيعته، شخص مُرْتَحِل سَقَط من الجنّة البَدئيّة وطُرِد من بلده لينقطِع عن لغتِه الأمّ. تلك هي حياة «أوليس» والأنبياء وحياة كتّاب وعمّال يتآكلهم حنين العودة.

أوليس

كتبت هيلين مونسكريه، مؤلفة «دموع أشيل» الكلمة التالية:

اخترعت العصور القديمة نموذجاً للرجل المنفي بعيداً عن أرضه. وأصبح «أوليس» مثال المرتحل المعذّب.

«اوه، كلاّ ليس هناك أعذب من العودة إلى الأهل والوطن؛ فما قيمة القصر الفخم في المنفى، عندما يكون مَالِكه محاطاً بغرباء، بعيداً عن أهله؟» يتكلّم «اوليس» عن قسوة المنفى قبل أن يبدأ سرد مغامراته الطويلة. ويا له من منفى! عشر سنوات من الحرب ضد اليونان في مدينة «طروادة» وتسع سنين من التشرّد في البحار بحثاً عن طريق العودة. وتكون ملحمة «اوديسة» ملحمة «الما بعد الحرب»، حكاية عودة الأبطال اليونانيين إلى منازلهم، وبالتحديد عودة «اوليس» الى وطنه. لقد قاوم «اوليس» عشر سنوات ليغادر تلك الأماكن القاحلة والعاقّة التي فشل فيها. عشر سنوات وتنقله العودة القاسية من منفى إلى آخر.

أين يتيه «اوليس»؟ في البحر الأبيض المتوسط الذي يفرض عليه غضب إلّه العاصفة والأمواج «بوسيدون». فالبحر مليء بالمخاطر. ومن يجتز البحر يتعرّض للعواصف وللوحوش البحريّة ولأسَى جسامة المساحات المتحركة القاحلة. زوابع وعواصف وغرق ومجابهات مخيفة. يخبىء المرسى مفاجآته ويبعد البطل عن هدفه، وتحمل المحطات قسطها من الآلام والعذاب.

إنه «اوليس»، «الرجل الذي تاه في الأرض والبحار، الرجل الذي عانى الغموم العديدة». سَجنته «كالبسو»، ساحرة البحر، فأمضى أيامه ولياليه يبكي عودته المستحيلة. وتكوّن أسطورة «اوليس» تجربة المنفى المتكاملة، تلك التجربة التي تجعل الإنسان لا إنسانياً فيصبح العدم بعينه. لقد فَقَد «اوليس» كل شيء. غنائمه وسفينته وأصحابه وسلاحه وماضيه البطولي، وأخيراً اسمه. إنه الغريب الغريق الذي لا اسم له، هو «أغمض رجال الأرض قاطبة»، إنه المنفي في عالم اللاإنسان.

لكن قدره ألاّ يختفي في أعماق البحار أو على أرض مهجورة. فشاعر «الاوديسة»، «هوميروس»، يترك «لأوليس» ذكاءه. وذكاؤه هذا هو أيضاً ذاكرته: لن يفقد «اوليس»، للحظة واحدة، معنى العودة.

لقد قاوم: لم ينس وطنه ولم يتخلَّ عن زوجته، بالرغم من جمال «كالبسو» ووعودها بالخلود الأبدي. من السهل حقاً أن يبقى «اوليس» مع الحورية، بعيداً عن الهموم، دائم الشباب، لكنّه اختار العودة الشاقّة وغموم البحر ليحتلّ من جديد مكانه بين البشر. إنه وفيّ لمبادئه المقاومة.

وبالرغم من مغادرته بلاد المنفى وعودته إلى الوطن، لم ينتهِ «اوليس» بعد من مقاومته. ويتحتَّم عليه، في بلده «ايثاكا» نفسها، ان ينفيَ هويّته الحقيقيّة. يجب عليه أن يتجاوز عدداً من المِحن ليثبت هويته.

وسيتعرَّف «اوليس» على جميع أنواع المذلاّت. فيكون تارة مُتسكّعاً مجهول الاسم، وطوراً بائساً يطلب الإحسان على عتبة قصره. والفرق شاسع بين ظرفه كشحّاذ يرتدي ملابس رثّة وظرفه كملك عادل جبّار. سوف يخوض «اوليس» مسابقات الرمح ويُذبّح الطامعين بالعرش والملكة ليُعترف به، أخيراً، سيداً للقصر وزوجاً للملكة: لقد وجد هويته الحقيقية. إنه ملك «ايثاكا» وبطل «طروادة» العظيم.

هكذا تكون مسألة الوطن جزءاً لا يتجزأ من الضرورة البطولية. إذ ان البطل هو، تحديداً، الإنسان الجديـر بأسلافه الأبطال والقيّم للأجيال القادمة؛ ستغني تلك الأجيال أمجاد بطلها وضروب مقاومته الباسلة.

إن «اوديسة اوليس» تعالج ضرورة الانتماء إلى شعب معين ووطن حنون. فالهويَّة تُكتسب فقط عندما يكون البطل في وطنه.

* * *

الإسلام: الهجرة اللامنتهية

وكتب المستشرق «جيل كيبيل» مؤلف كتاب «النبيّ وفرعون والحركات الإسلامية في مصر المعاصرة» الكلمة التالية:

ينبض قلب الدين الإسلامي وفقاً لإيقاع المنفى. ويطلق العرب على كلمة «المنفى» كلمة «الهجرة»، وهي هجرة النبيّ محمد من مكّة إلى المدينة المنوّرة.

لكن «الهجرة»، في عصرنا هذا، تحمل معنى الاغتراب، ذلك الاغتراب الذي يقود الشبّان العرب إلى دروب المنفى، إلى مدن «اوبرفيلية» الصناعيـة او الكويت النفـطية. وبـين الهجرة الاسطوريّة البـدئيّة والمنفى الحقيقي الحـالي، تَنتصب المملكة الإسلامية الوهمية، أي المدينة الإسلامية العادلة التي تُكتسب بعد العودة. هكذا عاد النبيّ منتصراً من المدينة، بعد أن جمع أنصاره لمدّة ثماني سنوات، إلى مكّة؛ وجعل من الكعبة السوداء، التي كانت معبد الوثنيين، رمـزاً لانتصار الإسـلام. كذلـك يحمل المهاجرون المسلمون إلى معامل «اوروبا» أو بؤر الخليج العربـي النفطية، حلم العـودة المنتصرة عـلى بؤسهم السابق. وعنـدما يستحيل على هذا الحلم أن يتحقّق، تحَلّ مكانه «طوبـى» سياسية تأخذ مثالاً لها الهجرة النبويّـة: تلك هي «طوبـى» الحـركات الإسلامية التي تجعل من القاهرة والجزائر والدار البيضاء وبيروت مدناً شبيهة بمكّة الوثنية، إذ يتوجّب إسقاط النظام الاجتماعي وطرد الحكّام الظالمين كي تولد المدينة الإسلاميّة.

هؤلاء الشبان الذين يتمنّون أن يضعوا «هجرتهم المغتربة» ضمن إطار سياسيّ، هم بأغلبيتهم، شبان متعلمون. وبالرغم من أنهم تعلموا كتابة وقراءة اللغـة العربيّـة، على عكس آبـائهم الأميين، فإن تلك المعرفة لم تفتح لهم أياً من أبواب التحديث او العصريّة.

من الخطير، دون شك، أن يعيش هؤلاء الشبان التجربة المرّة التي تكشف لهم ان التربية ليست سوى حديث كاذب. ومن الطبيعي أن ينقلبوا على تلك التربية، والمؤسسات الحكوميّة التي أنتجتها، والعالم الغربـي الذي أعطى المثال لتلك الحكـومات العربيّة. وينتشر هذا الوضع على عدد كبير من الشبان العرب الذي يحاولون بناء هوية إسلامية جديدة، ضمن منفى يبعدهم عن أنفسهم.

وبالرغم من أن هجرة الشبان العرب الحالية تنتج عن منطق اقتصادي متعلّق بتقسيم العمل الدولي بين البلدان التي تستورد اليد العاملة والبلدان التي تصدّرها، فإن هذه الهجرة تجَد، دون جهد كبير، خُطى الهجرة البدئية الإسلامية.

* * *

المنفى عند الرومانتيكيين

وكتب «جان رودو» المقالة التالية:

سيلازم استقرار إلّـه منفرد في سمـاوات متعذرة البلوغ (فيها كانت الآلهة القديمة تقطن النباتات والحيوانات) شعور بالنفي عند الإنسان. فالحياة أصبحت مسلكـاً، لا مقراً. أمـا المسلك الأخلاقي، فإنه متعلّق بعقد إيمان يرفض التكيّف مـع الحياة الزائلة. ذلك أن مقاومة الشهوات والرغبات تساعد الجسد على تلقّي النور الإلّهي. فلا يكون الإنسان منفياً لأنه بعيد عن المنزل الربّاني فحسب، بل يكون منفياً بعيداً وغريباً عن العالم المحيط به، كأنه يعتبر روحه منفيّة عن جسده. إن كل شيء يتخذ صورة اللحد، إذ أن الحياة ليست سوى اختبار لكي تُطَهّر الروح من الجسد كأنها كحول آلة تقطير ما. وتصبح الأرض لحداً للحياة كما يكون الجسد لحداً للروح. ويَكـمُن السبب الحقيقي لانتشار صور الكيمياء القديمة خلال عصور عديدة، في أن تلك الصور تعتبر الحياة مدرجـاً لتحوّل مـادة إلى أخرى، تمـاماً كـالعمل الفنيّ الكلاسيكي الذي كان يعتبر نفسه تجميلاً لواقع «مخيّب للأمل»، ويحوّله إلى مثال رائع.

ولأسبـاب تاريخيـة وروحيّة واقتصـاديـة، يعبّـر المـذهب الرومنتيكي عن مرض هذا القرن (أي المرض الذي يـرفض الاجتماعيات وحبّ الحياة). يقول الشاعر الرومنتيكي «لامارتين»، وقد بلغ الثلاثين من العمر، متألمّ الروح: «أتأمل الأرض وكأنها شبح تائه. لا تدفىء شمس الأحياء الأموات. لا صلة بيني وبين الأرض». ويحمل هذا الشعر عنوان العزلة ويعبّر عن حالة الإنسان الجوهريّة. إن «لامارتين» يجعل من العالم مقراً للموت ويعتبر الكائنات جميعها أشباحاً فقط.

إن أكثر اللحظات التي يشعر فيها المرء بانفصامه عن نفسه هي لحظات التيقّظ. ومن الطبيعي أن يقيّم الرومنتيكيون، ومن بعدهم السورياليون، الأحلام ويعادلوهـا بالشعـر: ففي كلتا التجربتين، الحلميّة والشعريّة، يدخل الكائن صوت ما، وهناك

شيء ما أو شخص ما يتكلّم داخله، ولا يتمكن المرء من أن ينسب لهذا الصوت مكاناً أو أصلاً أو مقصداً. فيُشبِّه الحلم، عند «بالزاك» و«هوكو» و«ساند» برحلة رَحِمِيّة إلى عالم الأموات. في هذه الحال، تُطابق اليقظة الولادة الصادمة. يرى الكاتب «نرفال» في كتابه «اورليا» عودته إلى الأحياء بفزع كبير، بعد أن استقبله سكان المدينة الغامضة كضيف فاضل: «أَرَقْتُ دموعي الساخنة، كأني تذكّرت الجنة الضائعة. عندئذٍ، أحسست، متألماً، أنني لستُ إلّا مارّاً في هذا العالم الغريب والحبيب معاً. وقد أخذت أرتجف لأنني سأعود إلى الحياة». يترك المرء الحلم بيأس ليعود إلى عالم الأموات. لا شك في أن الحلم تجربة أدبيّة عظيمة.

يَدلّ الإحساس بالنفي إلى شوق لماضي ارض مولدية، وكأن إعادة بناء جنّة رحميّة ليس بحلم يقظة، بل تجربة أساسية بقي منها ذكرى في دماغ بدائي. لذا نعتقد، «كنرفال» نفسه، أن شيئاً ما ينقص لتكتمل سعادتنا، اننا نبحث أبداً عن «الرسالة الضائعة أو الدلالة الممحوّة»، لكي يصبح للتجربة معنى، بعد أن تخلّى الرب عنا. ويقول بطل الكاتب «ريمون كونوه» في كتاب «القديس كليكلان»، وقد اجتاحت عقله أزمة «اوديبيّة»: «وراودته الفكرة التالية: إنه من الأفضل أن يبقى المرء داخل بطن أمّه، بالرغم من قذارة هذا الاعتراف».

وتَطمُر صورة الجنة أسف اللابقاء في بطن الأم الرطب. لكن هل يمكن لهذه الجنّة أن تعوض مكافأة الجنّة؟ لقد بنى الغرب أسطورته الدينية على أسس تتعلّق بالارغام والتضحية والشهادة. لذا يقرّ الشاعر «بودلير» بأن مهنة الحياة الأرضية ليست سوى صنع الألم والدموع. وأخيراً يقول «لامارتين» في شعره «الإنسان»: إن الإنسان إلّه هبط من السماوات ولم يزل يتذكرها.

* * *

قصص الهجرة من فلسطين

وكتبت جورجيا مخلوف الكاتبة الانتروبولوجية تقول:

يُشكّل الأدب الفلسطيني أدب المنفى. ويعبّر بجوهره عن صرخة الألم المميتة وعن العودة. وتُعبّر هذه الصرخة، بدورها، عن الإقتلاع البدئي: لقد أصبح الشعب، بين ليلة وضحاها، بعد شهر أيار عام ١٩٤٨، أقلّية وسط شعب غريب. وتشتيت لاجئين في بلدان الاستقبال... ويزوّدنا الأدب الفلسطيني بالكثير من الوثائق تتعلّق بتأثير هذه الكارثة الرئيسيّة: سجناء في بلادهم أو في السجون وانفصام الشخصيّة ونسيان جزئي وهذيان بالاضطهاد، لكن فكرة العودة لا تفارق الرجال.

ويكمُن عنف المنفى في فقدان المكان وتشويش الزمان. ويظهر هذا التشويش الزماني في انبعاثات الماضي بطريقة شبه حصريّة وتشابك صِيَغ الأفعال المستمر. ضلال سرمدي لقواعد يستحيل تصريفها...

يكتب اميل حبيبي: «إن المستقبل الذي أحلم به، هو الماضي... فأنا لا أكاد أفكّر بالمستقبل، حتى يظهر الماضي أمام عيني. إنه لماضٍ اختُرِع من جديد، كالشوق الذي يخلق الشيء الضائع».

وتبلغ الأرض وسيطرتها المباشرة على الأدب الفلسطيني، أهمية كبرى بحيث أننا نستطيع التكلّم عن أدب فلاحي أصيل يجد الكاتب فيه، عبر النص، تعلّق الفلاح العنيد بأرضه. هكذا تُنسج بين جسد الشاعر وجسد الوطن خيوط عديدة يُمجّدها حديث رومنتيكي وثوري معاً ويطلب الشاعر الألم بتكبّر وغضب.

ولا يكتمل الزمان والأرض إلّا عند الموت، فالموت هو الجسر الوحيد بين مأساة الحاضر المعلّق والبحث عن العودة إلى الوطن الأم.

لكن هذا الموت هو فعل، لا انعدام. هو فعل جماعي، لا استسلام فردي. إن موت «رجال في الشمس» الأصم، هو موت الكتابات السابقة، موتٌ يعلن عن نفسه.

هكذا مات رجال ثلاثة بصمت تحت شمس الصحراء الحارقة، داخل شاحنة ــ صهريج: «لماذا لم يدقّوا الجدران؟». ويبقى السؤال اللجوج دون أي جواب. ويبقى الموت أخرس: فالجثث التي ستوجد في اليوم التالي ليست حتى جثثاً فلسطينية. هي جثث عارية، لا هويّة لها.

«هل يذكر السماء
مهاجراً أتى هنا.... ولم يعد إلى الوطن؟
هل يذكر السماء
مهاجراً مات بلا كفن؟»

ويتكلّم الشاعر محمود درويش إلى غابة الصفصاف:

«هل تذكرين أنني إنسان
وتحفظين جثتي من سطوة الغربان؟»

إنه تطابق وجوه الحبيبة والأم وجميع النساء، وجه الوطن. تلك الوجوه، آخر خيمة للتقليد، تحرث الجدران الأبدية. هي أم سعد (كنفاني) أو أم «ربابكة» (حبيبي). وتعيش الأم أبداً، بالرغم من أنها منسيّة. تجمع أولادها المبعثرين وتفرض على الرجل المنفي والممزّق الوعد الوحيد: الحب. تقف الأم، في وجه المدينة التي تضمحلّ فيها الأشياء والكائنات. تلك هي الأرض؛ ألصقت

على أجساد المنفيين روائحها وألوانها وأشجارها. «والمنفى، يا حبيبتي، مهنة قاسية»... (فاروق وادي).

بالرغم من أن الأدب الفلسطيني وجد لهجة جديدة في السبعينات في «مراثي سميح القاسم» وأشعار محمود درويش (سرحان يشرب القهوة في الكفاتيريا» و«محاولة رقم ٧»)، فمن المستحيل أن يتخلى هذا الأدب عن القضية الفلسطينيّة. فيكون الأدب الفلسطيني أدباً سياسياً أو لا يكون.

جنون أن يكون المرء فلسطيني الجنسية... جنون أن يحمل اسمًا «أصبح شتيمة» وأن يطيل حياة تنذر بالشقاء.

يكتب محمد علي طه: «أخذت الصحيفة من جيبي، ثم تصفحتها وقرأتها. قرأت الصفحة الأولى كلها. ولم أجد أثراً لاسمي. فبحثت عن زاوية الوفيات. لا شيء ــ فمددت يدي وجسستُ أطرافي لكي أطمئن نفسي».

* * *

الأدب اللاتيني ــ الأمريكي والمنفى

وكتب ألبير بن سوسان المقال التالي:

لا يخشى الكتّاب اللاتينيون ــ الأمريكيّون المنفى أبداً. فهم، بمجملهم، لا يتألمون كثيراً لمغادرة البلاد لأسباب عديدة تذكر في كتاباتهم. يعود السبب الأهم إلى هذا التناقض المتعلّق بالإقليمية الاسبانيّة، أي التناقض بين الوطن الصغير والوطن الكبير. ويتألف الوطن الكبير من بلدان «أميركا ــ اللاتينيّة العشرين» ويضم «الأمة» التي تتكلم اللغة الاسبانية، ويصف الكاتب المكسيكي «كارلوس فونتس» في كتابه «الأرض لنا» الوحدة الثقافية بين بلدان الوطن الكبير، تلك الوحدة التي تتعدّى التقسيمات الجغرافية التي فرضها المستعمرون. ويكاد الكاتب التشلي «هوسي دونوسو» ان «يختنق في جو سانتياجو الريفي». وها هو في المكسيك عام ١٩٦٤، وقد بدّل بلاده، لكنه لم يبدّل لغته. ثم عاد إلى نيويورك لكي يجدّد لغته الانكليزية، فهو يتكلم هذه اللغة منذ السادسة من عمره. وقد كتب رواياته الأولى بلغة «شيكسبير». ولا يمكن تجاهل هذه الناحية المتعددة اللغات في دراسة تتعلق بمثقفي أميركا اللاتينيّة. كلا، لا يعاني الكاتب التشيلي «دونوسو» من صدمة الاقتلاع من بلده. لكن روايته الأخيرة، «الحديقة المجاورة» لا تتكلم سوى عن هذه الغربة في المنفى، عن رجل تشيلي بكى بعد أن علم نبأ موت والدته، عن رجل بعيد عن أقربائه وعن أرضه بيد أن الصفحة البيضاء التي تشير إلى عجزه عن الكتابة تفتنه وتسحره. لقد حبس نفسه في مكتبه وأخذ يتأمل، من النافذة، شباناً وشابات عُرياً وعاشقات، في الحديقة المجاورة. نعم، ذلك هو منفى مختلف. ويستهل «دونوسو» كتابته بالتحدث عن المنفى الجغرافي لكي يختمه بالمنفى العُمري، أو بنهاية الشباب والبراءة والاعتياد على الضعف... والموت. لذا عاد الكاتب التشيلي، بعد غياب دام ثماني عشرة سنة، إلى بلده «تشيلي» عام ١٩٨١.

أما الناحية الثانية التي تميّز الكتاب اللاتينيين ــ الأمريكيين، كالأرجنتينيين والأوروغويين، فهي ان هؤلاء الكتاب يصفون نفسهم كرجال دون جذور. ويعترف الارجنتيني الشهير «بورغيز» أنه، على خلاف هنود أميركا وأسلافهم أتى هو وشعبه من الباخرة فتكون أرجنتينيته عبارة عن فن لا مكان له ولا جذور.

أما الكاتب الارجنتيني «مانويل بويغ»، الذي تنقل من «بيونس آيرس» إلى «نيويورك» ومنها إلى «ريو دي جانيرو»، فقد تخلّى شيئاً فشيئاً عن ريشته الأصليّة وأخذ يترجم بعضاً من كتاباته إلى الاسبانية. إذاً فالمنفى هو اللغة. وهكذا يمثل «مانويل بويغ» الكاتب الذي فقد لغته ــ تماماً «كبيكيت» الذي عبّر بلغة غريبة عنه، الفرنسية.

ويعترف الكاتب الكوبي الشهير «جيلرمو انفانتيه»، الذي أصبح انكليزي الجنسية، انه كتب كتابه «ثلاثة نمور حزينة» لا بالإسبانية ولا بالكوبية، بل بلغة «هافانا» الليليّة. ويعود في روايته الأخيرة «هافان انفنتين المرحوم» ليؤكّد أن الماضي مات وان لا وجود «لهافانا» إلّا في تخيلاته المكتوبة... إن المنفى حوّل عمله إلى رثاء أو تأبين.

ويصرخ كاتب «البيرو»، «الفيردو ايشونيك» بلهجة تشبه لهجة الطائر المحروم من الطيران: «السعادة، ها! ها! ها!». وتكون السعادة والجنة منفيتين إلى أبد الآبدين بالنسبة لهذا الكاتب المقلوع الجذور بين «بارشلونة» و«باريس». ونلمس في كتاباته وضع الرجل «الأميركي ــ اللاتيني» في باريس. فيصف كتابه الأول عالم الطفولة الساحر بعطف وحياء. أما كتابه الثاني فيصف كيف تحوّل قصر طفولته إلى سَقيفة باريسية سريرها صارّ ومصاريعها لا تُغلق، وأصبح الأمير البروفي الصغير مُستأمناً. ونجده في كتابه الأخير يجتاز جبال «البيرينيه» ويقف وراء الجمارك الأسبانية لكي ينتقم من الفرنسيين العنصريين وكارهي الأجانب ويصرخ بحقد: «أيها المستأمنون: أيها المستأمنون القذرون!».

هل يمكننا أن نتكلم عن المنفى دون أن نذكر معطيات أمريكا اللاتينية المأساوية، أي رحيل الشعوب بسبب الدكتاتوريات؟ فسبب انقلاب «الاوراجواي»، عام ١٩٧٣، هجرة خمسمئة ألف من بلد يحتوي على ثلاثة ملايين من السكان. وقد عرفت «التشيلي»، في السنة نفسها، ضخامة الرحيل نفسها. ولقد ترك

مليون شخص بلاد «البراجواي». أما الأرجانتين العسكرية، فأجبرت العديد من المثقفين والكتاب على الفرار. والكتاب الكوبيين الذين يطالبون بالسماح لهم بالمعارضة.

نعم، إن المنفى لمأساة إنسانية. وماذا حصل للكتابة؟ نحن نعلم ان اضطهاد الكتاب كان حالاً ودون رحمة. فغادروا واتجهوا نحو البلدان الأوروبية، وبالتحديد نحو مثلث «لندن ــ باريس ــ بارشلونة».

ويقود الابتعاد عن الأرض إلى تعظيم هذه الأرض وتجميلها. لذلك تتطوّر الأعمال الأمريكية الرائعة في بلدان المنفى. فكتب الكولومبي «جابريان جرسيا ماركيز» كتابه «مئة عام من العزلة» بعيداً عن بلاده، والبيروني «ماريو فالجاس ليوسا» كتابه «المدينة والكلاب» في باريس، والأرجنتيني «خوليو كورتازار» كتابه «لعبة الأولاد» في المنفى...

لقد عرفت أمريكا اللاتينية، بالطبع شكلاً آخر للمنفى، ألا وهو المنفى الداخلي، أي الكلمة المراقبة أو الملجمة. وأفضل ممثل لهذا النوع من الكتابة الجريئة والموهوبة، هو الكاتب الارجنتيني «ارنستو ساباتو». إن كلمته المجازيّة تتجه دائمًا نحو جوهر الوضع الإنساني: موكب من العميان في مجتمع متوحّد، أشباح سكك الحديد، مرسمة جنازيّة وغنائيّة باردة... ويقول «ساباتو»: «يُجنّ الرجل الذي يُمنع عن الحلم. فالأدب دائمًا دلالة معارضة... وهو فعل قبل كل شيء، ثورة تنقذ الإنسان من الكبت والجنون ويبقى الأدب، في أخطر المواقف، هو الأقوى».

كلمات المنفى

للكاتب الارجنتيني «ماريو جولوبوف».

يدرّس «ماريو جولوبوف» في جامعة «تولوز» في فرنسا. وقد نشر العديد من الشعر ودراسة عن «بورغيز» وروايتين: «فارس رحّال حتى أعماق العينين» (١٩٧٦) و«مُربي الحمام» (١٩٨٤). ويقول عن المنفى:

«أعتقد أن كتابتي متعلقة أبداً بموضوع واحد: المنفى. أولاً، لقد ورثت ذلك من جدّي المهاجر. ثانياً، لأن المنفى هو قدري، وكأن القدر بَحَث عني قبل أن أولد، أو قبل أن أعي ذلك.

وربما كنت أكتب، ثالثاً، لأن الكتابة مهنتي. ذلك لأن الأدب، في يومنا هذا، هو بحد ذاته منفى مستمر. ما من أحد يكتب لأنه يشعر بأنه في مكانه هو، بل لأنه قُلع من مكانه. عندما تبدأ الكتابة، يصبح وهم غزو الأرض حقيقة، بل تصبح الأرض نفسها حقيقة، وكل ما كنت أملكه في الأرض البدئية يعود إلينا، تحتل الأشياء جميعها مكانها السابق، ويعود الغائب إلى أصله.

نكتب لأننا فقدنا بلداً أولياً لا يمكننا أن نسترجعه. نكتب لنشهد على هذا الفقدان. لو لم نفقد شيئاً لما كتبنا. لو كان لنا بلد، لما احتجنا أن نبحث في الأوراق المهجورة عن صدى بلدنا.

لقد عدت إلى بلدي بعد عدة سنوات. يجب أن أعترف لكم ولنفسي أنني لم أجد شيئاً من الأشياء التي حلمتُ بها. ولم أجد نفسي. أُضيف إلى الارجنتين العديد من الأموات والمفقودين وأقداراً ومصائب خلال السنوات الأخيرة هذه. لقد مشيت في شوارع ضيعتي المولديّة باحثاً عن ارتعاد يدي الطفلة، لكن الشوارع ويدي تغيرت، وأعتقد أن العالم نضج، أو شاخ بقساوة.

أما الآن، فأستمرّ بالكتابة، بالرغم من أنني أجهل مستقبلي وتبقى بلادي، بلاد الأحلام والمنفى، بلاد الصفحات المبعثرة، تبقى المسافة بين القنديل والطاولة، تبقى بلادي في ذلك المكان الهارب الذي يمثل وطن الكاتب الحقيقي».

اللغة الفرنسيّة ومنفيو المغرب العربي

بقلم «باتريك رونودو».

كيف نَصل إلى طرق التقدّم واكتساب الهويّة؟ هل نرفض الماضي؟ هل نعود إلى الينابيع؟ ترى هل يَتحتّم علينا إيجاد حلٍّ أوسط؟ لقد فرض التاريخ على كتاب المغرب بالفرنسيّة موقف الانشقاق. فهم ممزّقون بين «النفور من الحياة وإرادة البقاء». إنه منفى داخلي، منفى اللغة. منفى الهجرة. منفى المثقّف المحكوم عليه أن يكون أبداً كاتباً طليعياً أو قنديل الثورة الأحمر. إنهم يعيشون حياة المنفى في الرباط وفي باريس معاً، أو في تونس و«ليون» معاً أو الجزائر و«مارسيليا» في آن واحد. ومن المستحيل أن يتهربوا من الإحساس بوجودهم بين حضارتين وتاريخين، وطريقتين مختلفتين لتحليل العالم.

لقد كتب الشاعر الجزائري «جان عمروش» عام ١٩٤٣: «يعيش كتّاب أفريقيا بالفرنسية مأساة تتعلّق بالفروق بين اللغة العربية والفرنسيّة. وتنعكس تلك الفروق على صعيد الإبداع الشعري. إن لغة المواطن الأصيل تنسجم مع مشاعر الكتّاب الأفريقيين وأصوات الأرض والسماء وأصوات الأموات التي تحكم الحياة الثانية. واللغة الفرنسية توفّر لهم الكثير من الوسائل لكن هذه اللغة تبقى غريبة عن كل ما في اللغات الافريقية من شهوانية وروحانية. لذلك لا يستطيع الكاتب الافريقي استعمال اللغة

الفرنسية إلاّ كوسيلة ثقافية بحتة (. . .). إننا لا نصل إلى الجزيرة المعزولة أو النجمة النائمة في قلب القارّة الافريقية لا بواسطة الفكر التحليلي ولا الشعر الوصفي».

ولد الأدب المغربي بالفرنسية في الثلاثينيات، عندما نشر «جان عمروش» كتابه الأول بعنوان «رماد!». وهو قد نشأ في عائلة قبلية جزائرية وكتب عن «غرابة» موقف الكاتب المغربي الممزّق بين العصريّة والتقاليد وبين شعبه وتربية فرنسية مفروضة. تمزّق عالم الكاتب بسبب كل هذه التناقضات وها هو يصرخ: «رماد! أين يوجد مكان لي ولابنك المقيّد الأطراف؟ أين؟».

ولقد غيّرت حرب ١٩٣٠ ــ ١٩٤٥ المعطيات كلها. أصبح بالإمكان الانتصار على القوة الاستعمارية. وفي هذه الفترة «قبل ــ الثوريّة»، حتى انتفاضة الجزائر عام ١٩٥٤، تدفّق في الجزائر أدب «عِراقي»[1] متمثّل بكتابات محمدّ ديب (البيت الكبير) ومولود فرعون (ابن الفقير) ومولود مُعمّري (التلّة المنسيّة) وإدريس شرايبي (الماضي البسيط).

ويعبّر هؤلاء الكتّاب عن تسرّب «الحداثة» داخل مجتمع منغلق على ذاته، ويتصدّون للأعمال الاستعمارية في إطار الحياة التقليدية التي تسيطر عليها صورة «الأم»، صورة قد نسيها التاريخ. وفي الجزائر تبرز شخصيات الماضي كعبدالقادر وغيره. وتعبّر العودة إلى الأسلاف عن وعي عربي صميم.

لكن اللغة العربية الفصيحة كانت لغة غريبة بالنسبة للمغرب العربي آنذاك. ولم يبق أمام الكتّاب المغاربة سوى استعمال اللغة المحكية أو اللغة الفرنسية. وقد اتُّهم كتّاب «جيل ١٩٥٢» بأنهم يتحدّثون إلى مستمعين أوروبيين. ونسي هؤلاء المتّهمون أن الكتابة باللغة الفرنسية هي، بطبيعتها، خطوة ثورية إذ انها تؤكد الهوية العربية.

ورافق النهضة الثورية في الجزائر عام ١٩٥٤ ازدهار القصص الحربيّة. وقد اكتشف المغرب «الأدب الملتزم» حين هجرت «الرواية الفرنسية الجديدة» هذا النوع من الأدب. وظهرت الواقعية التاريخية في الإنتاج الأدبي وانبثقت فكرة «الرجل المغربي الجديد». لم يعد الكاتب أو الشاعر العربي يمثّل قنديل الشعب المضيء، بل أصبح الشعب المسلّح قائد التاريخ (واندمج «الأنا الفردي» بطريقة طبيعية «بالأنا الجماعي»).

وتصبح اللغة الفرنسية، بالنسبة للثوريين، سلاحاً لتوعية الضمير العالمي. إن الشاعر الجزائري «مالك حداد» يعبّر عن قلق المثقف المغربي وتناقضاته. وقد كتب يقول: «إن اللغة الفرنسية هي مَنفاي». ويحرق بطل «مولود مُعمّري» الشعراء والكتّاب الفرنسيين كـ «روسو» و «هوغو» و «اوغوست كونت». ويقول البطل: «إنني أشخُّ على الأفكار».

لكن الكاتب الذي سيطر على الأدب المغربي في فترة «ما قبل الاستقلال» هو «كاتب ياسين». فنجح في تخطي مشكلة الفرديّة ليخلق من جديد التاريخ والأسطورة. وتبقى روايته «نجمة» أهم رواية كتبها كاتب مغربي بالفرنسية. إنه مجدّد في الكتابة. يرتكز على عبادة الأسلاف وينطلق للبحث عن الوحدة الرمزية عبر «نجمة» يتعذّر التقاطها، وتُدعى الجزائر. يقول «عبدالكبير خطيبي»: «الأسطورة بالنسبة لكاتب ياسين تأمّل يؤدي إلى تزوير التاريخ وإلى تشويشه في جوّ لِعَبي».

أما في المغرب، فقد نشأ الأدب بالفرنسية بعد الاستقلال. وتحمل بطلتا «طاهر بن جلون»، حرودة ومودّة، أحلام الشبان المغاربة ــ إذ أنهما تتكلمان عن الأبطال التاريخيّين والأسطوريين وعن فضح المواقف السياسيّة وعن مشاكل الاغتراب. إن كتّاب المغرب جميعهم شعراء: إدريس شرايبي ومحمد خيرالدين وطاهر بن جلون وعبدالكبير خطيبي. . .

وهناك القليل من الكتاب التونسيين بالفرنسية، هل تقدّم تونس لكتابها أرضاً أكثر صفاءً من المغرب والجزائر؟ ربما لأن تونس أكثر تعريباً[1] يظهر، على كل حال، ان كتابها، «كمنصف غاشم»، يفضلون العنف الثوري المتحرّر على الحبّ والبحر وتمجيد النور. ويقول «غاشم»: «أكتب فتهتاج اللغة ويحترق الصخر ويَبعَج النور الصحراء القاحلة».

انتهت الآن حروب التحرير في المغرب العربي. والتزم الأدب المغربي، بعد أن استرجع أرضه وتاريخه، «بنقد ذاتي يُستعمل محلياً». وإذا اعتبر الأدب المغربي نفسه أدباً منفياً أو أدباً في المنفى، فلأنه لا يُعترف به في الخارج وترفضه عامة السلطات المحلية تحية لانبعاث أدب المعارضة!

كلمات المنفى

بقلم طاهر بن جلون.

ولد طاهر بن جلون في مدينة فاس. يسكن في فرنسا ولكنه يتردّد دائمًا إلى بلده. ويدافع دون توقف عن قضيّة المغتربين

(١) عِراقي متعلّق بالعراقة وهي العلم الذي يبحثُ في خصائص الشعوب.

(١) تعريب: إضفاء الصفة العربية اجتماعياً وأدبياً.

ويطالب «بفرنسا متعدّدة الجنسيات»؟ إنه كاتب وشاعر وصحافي وتدعى روايته الأخيرة: «المضيافة الفرنسية».

«كلمة، جملة لا تنقطع، شعر يؤلف على عتبة البلاد، وجهه ينتخبه الوطن ليشمل الذكريات، شرفة تضيئها الشمس الحادة، وهواء شرقي يملأ الطفولة بعواطف كثيرة... أستعمل لغة الآخر لأعبّر عن المنفى. لقد جفّت الكلمات العربية في ذاكرتي. كنتُ طفلاً يراقب حركات النساء اللواتي صبغن شعرهنّ بالحنّة قبل الاستحمام. كنت أراقبهنّ من شرفتي.

«أنا في طنجة. يقع بيتنا على جرف صخري. تتعثر لغتي العربية وأظن أن البحر والقمر كلمتان مؤنّثتان والشمس كلمة مذكرة. يكنّس الهواء الشرقي القادم من اسبانيا، المدينة. كانت مدينة طنجة مقراً لقطّاع الطرق والشعراء. تشير حجارتها الأرملة إلى السفر والنسيان.

«نظّمتُ أشعاراً ورويتُ قصصاً، زوّرت التاريخ وترجمتُ الهواء بلغة القارّة البعيدة. كانت اللغة الفرنسية بلاد المنفى وبيتاً دون شرفة وممراً دون نور. لكنني وجدتُ وجوهاً وكتباً مفتوحة. كتبتُ بسبب حدث طارىء، «لكي ينهض شعب أخرس في جملي الشعرية». شعب لا يحسن القراءة والكتابة، شعب يملك «لغاته» وحضارته.

«إنني أحاول أن أصنع من هذه الأرض المنسية وترابها، جملة لا نهاية لها، أو سرداباً أو شعراً أو قصة شرقية.

«وتقف الشمس، على مدخل هذه الكلمات وهذا العطر، كأنها مرآة قديمة زرعها أطفال يحتقرون الزمان، فوجّهوا المرآة حتى لاقت الشمس، فإذا هي تحدث حريقاً كبيراً، ثم مزّقوا كتب اللغات الخرساء ومضوا ضاحكين». ومن هذا المنفى الذي يدمّر القواعد، تهرب نصوص لها طعم الطفولة وفرح الأولاد. إن الكتابة هي انفصال: مغادرة جسد الأم والابتعاد عن الوطن.

«أن يكتب المرء يعني أن يسكن اسمه.

«أما أنا، فأسكن داخل لغة مختلفة عن لغة أمي. إنني منفصل، لا منفيّ. أكتب عن هذا الانفصال. أبعد وجهي عني وعن كتابتي.

إن حرقة الغيبة شغف. بيتان، شاطئان ومنفى واحد...».

إعداد: رنا إدريس

دار الآداب تقدم

كولن ولسن

خفايا الحياة

« أطل كولن ولسن كعاصفة على الثقافة العربية منذ ترجم كتابه الأول « اللامنتمي » ، ووجد ترحيباً داخل النفس العربية التي تشعر بأصالتها لكنها ضائعة وسط الحضارات والثقافات الزائفة التي تسلبها ذاتها ، وهي الفكرة المحورية في « اللامنتمي » لأن المغترب يرى أعمق وهو ضائع وسط الحشد . ثم انسرب كولن ولسن الى دراسة الخوارق والاهتمام بعلم نفس الأعماق .

والمقولة الأساسية في هذا الكتاب « خفايا الحياة » تذهب الى أن الطاقة المنخفضة تسلّمنا للإنسان الآلي الكامن داخلنا ، والذي يُسرع بالاستيلاء على مقاليد الأمور عندما يرى أننا مُتعبون ، ثم نفقد كل شعور بالمعنى . ولا بد من الاستيقاظ وزيادة طاقاتنا ورفع الوعي عندنا حتى يمكن أن تتولد فينا الطاقات المخزونة المتسعة ، وبهذا نرقى في سلّم النفوس .

وهذه المقولة منسوجة داخل نسيج هائل من المعلومات عن الخوارق وعلم نفس الأعماق والغيبيات وعلم الآثار والفلك والديانات القديمة ودروب التنين والسحر والغيلان والأشباح . .

وبالرغم من أن الانسان العربي ليس محتاجاً الى مزيد من الحديث عن الغيبيات ، فإن احتياجه يظلّ ، من خلال كتابات ولسن ، الى أن يعرف المزيد عن الوعي حتى يقتل الإنسان الآلي الكامن في داخله والذي يشلّه عن الحركة والحياة .